

هذا هو الميثاق في عجالة، تم جمعه من نتف الروايات التي سجلها التاريخ، وهو يؤكد دون شك أن الأسس الهادية في تسوية النزاعات والخلافات بين طوائف المدينة كانت أمينة وواقعية وعادلة.

وأولئك الذين خالفوا الميثاق وخرجوا عليه، تقع عليهم مسؤولية المخالفات وما ترتب عليها. وقد أوضح الميثاق بجلاء أن الرسول ﷺ كان يتعامل فعلاً بتمدن وتعاطف مع جميع مواطني المدينة الآخرين، وكان يحترمهم ويتعامل معهم كإخوة. فإذا كانت النزاعات والصراعات قد حدثت بعد ذلك، فإن المسؤولية تقع على اليهود.

وكما سبق أن قلنا، مرّ شهران أو ثلاثة قبل أن يُعَبِّئ أهل مكة خططهم المعادية ضد الإسلام، وجاءتهم الفرصة حين وصل سعد بن معاذ ﷺ سيد الأوس إلى مكة ليطوف بالكعبة، فرآه أبو جهل فقال له: "أتتوقعون أن بإمكانكم المحيء إلى مكة والطواف بالكعبة آمنين بعد أن قدّمتم الحماية لهذا المارق محمد؟ أتظن أنك تستطيع منع محمد وإنقاذه؟ أقسم بالله أن هذا لن يكون، ولن تستطيع أن تعود لأهلك سالماً". فردّ سعد بن معاذ ﷺ قائلاً: "خذها مني كلمة، لو منعتموننا من الطواف بالبيت والحج، فلن تجدوا سلاماً في الطريق إلى الشام".

وحول هذا الوقت، مرض الوليد بن المغيرة مرضاً شديداً، وهو أحد سادات مكة، وتوقع أن نهايته قد حانت. وكان سادات مكة الآخرون حول فراشه. ولم يستطع الوليد أن يتمالك نفسه فأخذ يبكي، فتعجب السادة الآخرون لبكائه، وسألوه عما يبكيه. فأجاب: "أتظنون أني أخشى الموت؟ ليس الموت ما أخشاه، بل أخشى أن ينتشر دين محمد

وأن يتبعه الناس حتى تبايعه مكة نفسها". وعند ذلك أقسم له أبو سفيان أنهم سيقاومون هذا باذلين أرواحهم ضد انتشار هذا الأمر (الخميس جزء ١).

مشركو مكة يستعدون لمهاجمة المدينة

يتضح من هذا السرد للأحداث أن هدوء عداوة مكة كان أمراً مؤقتاً، إذ كان سادة مكة يستعدون لاستئناف الهجوم على الإسلام. لقد أخذ الزعماء الراحلون على هؤلاء الذين بقوا من بعدهم موثيق مغلظة أن يظلوا على عداوة الرسول ﷺ مدى الحياة، واستنفروهم واستنهضوهم للحرب ضده و ضد أتباعه. وقد حرّض مشركو مكة أهل المدينة على حمل السلاح ضد المسلمين وطردهم من المدينة، كما أذروهم بالهجوم على المدينة، وقتل رجالهم واستعباد نساءهم إن لم يفعلوا المطلوب. فلو كان الرسول ﷺ قد تنحى جانبا ولم يفعل شيئاً للدفاع عن المدينة، لكان قد فرط في حق مسؤوليات جسام. ولذلك فقد أسس الرسول ﷺ نظاماً للاستطلاع، فأرسل مجموعات من الناس إلى أماكن مختلفة حول مكة ليتعرفّ علامات استعداد مشركي مكة للحرب. ومنذ وقت لآخر، كانت تقع بعض الحوادث والاشتباكات والمعارك بين هذه المجموعات وبين أهل مكة.

يقول الكتاب الأوروبيون إنّ النبيّ هو الذي أشعل شرارة هذه الأحداث، وإذن فهو المسؤول عن الحرب التي نجمت بعد ذلك، ولذا فهو يُعتبر الطرف المعتدي. ولكن أماننا ثلاثة عشر عاماً من طغيان

أهل مكة، ومن ثم مكائدهم لاستعداد أهل المدينة على المسلمين، والتهديد بالهجوم على المدينة نفسها. ولا يمكن لمن يضع كل هذا نصب عينيه أن يتهم الرسول ﷺ بالمسؤولية عن إشعال الحرب. وإذا اضطر أن يرسل بعض السرايا للاستطلاع، فهذا دفاع عن النفس. إن ثلاثة عشر عاماً من الطغيان والاضطهاد والقتل والتعذيب كانت كافية لأن يتخذ المسلمون كافة الوسائل للدفاع عن أنفسهم، وإذا نشبت الحرب بينهم وبين أهل مكة فإن المسؤولية لا تقع على عاتق المسلمين في ذلك.

إن الأمم المسيحية اليوم تعلن الحرب لأسباب أدنى وأوهن كثيراً من ذلك، ولو أن نصف ما ارتكبه أهل مكة ضد المسلمين قد ارتكبه بلد في حق أحد الشعوب الغربية، لوجدوا فيه المبرر الكافي الذي يدفعهم لشن الحرب بسببه؛ فحين يقوم شعب في بلد ما بالتدبير والتخطيط والتعبئة الشاملة للقضاء على شعب آخر، وحين يُرغم شعب ما شعباً آخر على الخروج من دياره، ألا يعطى هذا للضحايا الحق في شنّ الحرب؟ إن المسلمين لم يكونوا في حاجة إلى سبب إضافي لشنّ الحرب على مكة بعد أن اضطروهم أهلها للخروج منها والهجرة إلى المدينة. ورغم ذلك فإنّ الرسول ﷺ لم يعلن الحرب. لقد أظهر تسامحاً، وقصر كل أنشطته الدفاعية على الاستطلاع فقط، بينما استمر أهل مكة في إثارة قلق المسلمين وإزعاجهم، وحرّضوا أهل المدينة ضدهم، وتدخلوا فمنعواهم حقهم في الحج، وغيروا طرق قوافلهم المعتادة، وبدأوا يندسّون في القبائل المحيطة بالمدينة ويحرّضونهم ضد المسلمين.

وتهدّد سلام المدينة. وهكذا صار واجباً واضحاً على المسلمين أن يقبلوا التحدي، تحدي الحرب الذي كان أهل مكة يطرحونه طيلة أربعة عشر عاماً كاملة، وتحت هذه الظروف والملابسات لا يمكن لعاقل أن ينازع في حق المسلمين أن يقبلوا التحدي.

وبينما كان الرسول مشغولاً في أعمال الاستطلاع، فإنه لم يهمل الاهتمام بتلبية الاحتياجات اليومية العادية والضرورات الروحانية لأتباعه في المدينة. وكان فيها غالبية عظمى من السكان قد صاروا مسلمين ظاهراً وباطناً، وبعضهم أظهر الإسلام فقط ولم يزد. وبدأ الرسول ﷺ يؤسّس الشكل الإسلامي للحكومة في المدينة.

وفي الأيام الخوالي، كان العرب يحسمون نزاعاتهم بالسيف أو بالعنف. وقد أدخل الرسول ﷺ نظام التقاضي، فعين القضاة للنظر في الدعاوى التي يقيمها الأفراد أو المجموعات بعضهم ضد الآخر. وما لم يُصدر القاضي إعلاناً بصحة الدعوى فلا تُعتبر التهمة قائمة بعد. وفي الماضي كان العرب يزدرون المهن الذهنية، فاتخذ الرسول ﷺ خطوات نحو الأمية وإشاعة الرغبة في التعليم، وطلب ممن يجيدون القراءة والكتابة أن يُعلموا الآخرين هذه الفنون. ووضع نهاية للظلم والقسوة، كما فرض القواعد لحفظ حقوق النساء. وتصدّق الأغنياء من أجل حاجات الفقراء وتحسين مستوى الحياة الاجتماعية للمدينة. وتمت حماية العمال من الاستغلال، ووُضعت التدابير لحفظ حقوق الورثة الضعفاء من اليتامى وتعيين الأمانة عليهم وعلى أموالهم. وبدأ تسجيل القروض بالكتابة، والتأكيد على الأهمية القصوى للوفاء بالعهود. كما

تم إلغاء التجاوزات في معاملة العبيد، وتوجّه الاهتمام بأمور النظافة الشخصية والصحة العامة، كما تم إجراء إحصاء للسكان. ومُهّدت الطرق والدروب وتم توسيعها، واتخذت الخطوات اللازمة للاحتفاظ بنظافتها. وباختصار، فإن العرب البدائيين، ولأول مرة في تاريخهم، بدأوا يخطون على درب التهذيب والتمدّن.

غزوة بدر

كان أهل مكة يستعدون من أجل ترتيبات الحرب، وكان الرسول ﷺ يخطط من أجل وضع الترتيبات العملية وإرساء القواعد وسن القوانين التي لن تفيد مجتمعه وجيله الخاص من العرب فحسب، بل تفيد الإنسانية كلها، وعلى مدى التاريخ. وهكذا بينما كان الرسول ﷺ يخطط لإرساء القانون الذي يضع منهجاً للحياة يكون كفيلاً لأن يجلب السلام لقومه وللآخرين، ويفتح للجميع طريق المجد والتقدم، كان أعداؤه من أهل مكة على العكس من ذلك يخططون من أجل تحطيم ذلك المنهج، والقضاء على ذلك القانون. وقد ترتبت على خططهم نتائج وتداعيات، أثرت ثمرتها في معركة بدر.

كان قد مرّ على الهجرة ثمانية عشر شهراً. وكان أبو سفيان على رأس قافلة تجارية عائدة من الشام. وتحت مظلة الاحتجاج بحماية هذه القافلة، حشد أهل مكة جيشاً ضخماً وقرروا تسييره إلى المدينة. وعرف الرسول ﷺ بهذه الاستعدادات، وجاءه الوحي من الله تعالى أن الوقت قد حان لسداد الدّين إلى العدو وبنفس الطريقة. خرج الرسول

من المدينة ومعه عدد من أصحابه، ولم يكن أحد يعلم حتى هذا الأوان ما إذا كانت هذه الفئة المسلمة ستلقى القافلة العائدة من الشام أو الجيش القادم من مكة، وكان عدد المسلمين حوالي الثلاثمائة. لم تكن القوافل في تلك الأيام تقتصر على الإبل المحملة بالبضائع، بل كانت تشمل أيضاً جنوداً مسلحين يجرسون القافلة ويصحبونها خلال رحلتها. وعندما اشتد التوتر بين أهل مكة ومسلمي المدينة، أخذ سادة مكة يُولون عناية خاصة لتسليح القوة المرافقة للقوافل. وسجّلت الوثائق التاريخية حقيقة أن هناك قافلتين أُخريين مرّتا على هذا الطريق قبل فترة قصيرة، وبلغ عدد الحرس المرافقين في واحدة منهما مائتي رجل مسلح، وفي الأخرى ثلاثمائة.

وإنه لافتراض خاطئ أن نظن.. كما يفعل الكتاب المسيحيون.. أن الرسول ﷺ أخذ معه ثلاثمائة من أتباعه وتوجّه بهم ليهاجم قافلة تجارية لا ترافقها قوة للدفاع؛ فإن هذا ظن فاسد وليس له أساس من الصحة. فتلك القافلة القادمة من الشام كانت ضخمة، وبالنظر إلى حجمها وحجم الحراسة المسلحة التي ترافق القوافل الأخرى، كان من المتوقع أن تكون تلك القافلة في حراسة قوة كبيرة تتراوح بين أربعمائة أو خمسمائة من الحراس المسلحين المرافقين لها.

وإنه لمن الظلم البالغ الزعم بأن فئة قليلة من المسلمين، قوامها ثلاثمائة فرد ضعفاء التسليح، قد خرجوا بقيادة الرسول ﷺ لمهاجمة وسلب قافلة جيدة التسليح كهذه. إن هذا تفكير المتحاملين على الإسلام الذين لا يضمرون سوى سوء النية المتعمد بغير عقل أو منطق.

ولو كان رهط المسلمين قد خرج لمواجهة هذه القافلة وحدها فقط، فإن مغامرهم يمكن أن توصف بأنها مغامرة حرب؛ مع أنها كانت حرباً دفاعية. وسبب اعتبارها مغامرة؛ هو قلة عدد المسلمين وضعف تسليحهم مقابل ضخامة عدد أهل مكة وجودة تسليحهم، واستعدادهم الطويل لشنّ العدوان على المسلمين في المدينة.

وفي الحقيقة، إن الظروف التي خرجت فيها هذه الفئة القليلة من المسلمين كانت أشدّ خطراً. وكما أسلفنا، فإنهم لم يكونوا يعرفون ما إذا كانوا سيلقون القافلة العائدة من الشام أم سيضطرون لمواجهة الجيش القادم من مكة. وعدم وضوح الهدف أمامهم أدّى إلى حالة "عدم اليقين" التي أشار إليها القرآن المجيد، وكان عليهم أن يتوقعوا الأمرين. وترجع مغادرة المسلمين للمدينة في ظل حالة عدم اليقين هذه إلى اطمئنانهم بالإيمان وإخلاصهم الصادق الذي لا حدود له. وبعد أن صاروا على مسافة من المدينة، أخبرهم الرسول ﷺ أنهم ملاقوا الجيش الضخم القادم من مكة بدلاً من القافلة القادمة من الشام.

بلغت المسلمين أنباء متضاربة تتعلق بحجم جيش مكة، وأقربها للحقيقة كان يحدّد العدد بألف، كلهم من المقاتلين المجهزين بالسلاح والمدربين على فنون الحرب. وكان العدد الذي صحب الرسول ﷺ يبلغ ثلاثمائة وثلاثة عشر ليس إلا، منهم كثيرون بلا خبرة ولا تدريب، وأغلبهم ضعيف التسليح، وكانت الجمهرة الكبرى منهم يمشون على أقدامهم أو محمولون على إبل، وليس عندهم جميعاً سوى فرسين.

لقد اضطرت هذه الفئة القليلة التي كانت تفتقر إلى أسلحة الحرب وخبرة القتال إلى مواجهة قوّة تبلغ ثلاثة أمثالها في العدد، تتكوّن في غالبيتها من مقاتلين مدربين ذوي حنكة وخبرة. وإنه لمن الواضح تماماً أن اتخاذ قرار بهذه المواجهة كان أكثر القرارات التي تم اتخاذها على الإطلاق في خطورتها على مدى التاريخ كله.

وكان الرسول ﷺ من الحكمة بحيث يتأكد أن لا يشترك أحد في المعركة القادمة بغير علم سابق، أو دون أن تكون موافقته نابعة من صميم قلبه وإرادته الحرة. فأخبر أصحابه بوضوح أنهم لم يعودوا يواجهون احتمال لقاء القافلة، بل هو جيش مكة الآن، وسأل الناس المشورة. وقام الواحد تلو الآخر من المهاجرين يؤكدون للرسول ﷺ ولاءهم وحماسهم وتصميمهم على القتال ضد جيش مكة، الذي جاء ليهاجم مسلمي المدينة في وطنهم ويوقتهم. وكرّر الرسول ﷺ طلب المشورة بعد كل مرة يستمع فيها إلى واحد من المهاجرين. وكان الأنصار من أهل المدينة صامتين حتى الآن، فلمعتدون كانوا من مكة، وتربطهم روابط الدم بكثير من هؤلاء المهاجرين الذين كانوا يشكلون جزءاً من هذه الفئة القليلة. وقد خشي الأنصار أن يقولوا شيئاً قد يجرح مشاعر إخوانهم المهاجرين، إذا أظهروا رغبتهم وحماسهم لقتال أهل مكة.

ثم قال رسول الله ﷺ: "أشيروا عليّ أيها الناس"، وكان يقصد الأنصار، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما

نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا يكون الأنصار يرون أن عليهم نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. ولكن عندما أصر رسول الله على تكرار طلب المشورة، قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟". قال: "أجل". قال: "لقد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به". وقام أيضاً من الأنصار المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: "يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه". (انظر البخاري كتاب المغازي، وابن هشام).

كانت تلك هي روح الحب والتضحية التي أظهرها المسلمون الأول، والتي لم يوجد لها مثيل في تاريخ العالم كله. لقد ذكرنا سابقاً مثل أصحاب موسى عليه السلام، وكيف رفضوا قتال العدو. وهكذا كان حال حواربي المسيح عليه السلام، الذين تركوه في أخرج المواقف، إذ خانته أحدهم وأسلمه لقاء مبلغ حقير، وأنكره الآخر وصب عليه اللعنات،

بينما لاذ الباقون بالفرار في ساعة العسرة. أما المسلمون من الأنصار في المدينة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ، فلم يكن قد مضى على صحبتهم له سوى عام ونصف، ومع ذلك فقد بلغوا تلك القوة التي لا مثيل لها في عالم الإيمان، بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ أن يلقوا بأنفسهم في خضم البحر لكانوا طوع أمره دون أي تردد. لقد حصل الرسول ﷺ على المشورة التي طلبها، ولكنه لم يكن لديه أدنى شك في حب أتباعه وصدق إخلاصهم. لقد طلب المشورة ليغربل منهم الضعيف ويقصيه بعيداً، فوجد المهاجرين من أهل مكة، والأنصار من أهل المدينة، وكل منهم يباري الآخر في التعبير عن الحب والتضحية، وكلاهما قد صمّم ألا يولي العدو دبره، حتى ولو كان العدو يفوقهم في العدد أضعافاً ثلاثة، وكان أفضل منهم كثيراً في السلاح والعتاد، وأشد منهم خبرة بفنون القتال. لقد وضعوا كل ثقتهم في وعد الله ﷻ، وأظهر كل من الأنصار والمهاجرين معاً عظمة تقديرهم للإسلام، وقدّموا أرواحهم ومهجهم للدفاع عنه.

وتقدم الرسول ﷺ بعد أن تحقّق من إخلاص كل من مسلمي مكة والمدينة، حتى بلغ مكاناً يسمى بدرًا، فأخذ بمشورة أحد صحابته وأمر رجاله أن يعسكروا قريباً من ماء بدر. وقام المسلمون بتأمين مصدر المياه هذا، غير أن منطقة الأرض التي كانوا عليها كانت رملية لا تثبت عليها الأقدام حين تقتضي المعركة المناورات بين الرجال، وأظهر الصحابة قلقهم الطبيعي لهذا العيب الذي يشوب المكان، وشاركهم الرسول ﷺ القلق، فأمضى الليل كله يدعو ربه:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض أبداً" (راجع الطبري).

سمع الله تعالى تضرع نبيه، ونزل المطر أثناء الليل، فأصبح الجزء الرملي من الميدان الذي كان يشغله المسلمون رطباً ومتماسكاً، أما الجزء الآخر الذي نزل به العدو فأصبح طينياً زلقاً. ولعل الأعداء من أهل مكة قد اختاروا هذا الجزء وتركوا الجزء الرملي للمسلمين عمداً، لأن عيونهم الخبيرة فضّلت الأرض الجافة لتسهيل حركة المشاة والفرسان. ولكن الله قلب عليهم الطاولة في الوقت الدقيق المحكم. لقد تصلبت المنطقة الرملية التي كان عليها المسلمون بفعل المطر ليلاً، وأوْحلت المنطقة الصلبة التي كان عليها أهل مكة وصارت مزلقة للأقدام. وخلال الليل، تلقى رسول الله إشارة من ربه ﷻ أن رعوساً مهمّة من رجال العدو ستلقى حتفها. بل لقد أوحى إليه بأسماء الأشخاص، وأوحى إليه بالمواضع التي سيلقون فيها مصرعهم. ولقد هلكوا كما سماهم ﷻ، وسقطوا حيث سبق وأخبر به.

وعندما دارت المعركة ذاتها، أظهرت هذه الفئة القليلة من المسلمين جسارة عجيبة وتفانياً رائعاً. ولتوضيح ذلك، نكتفي بذكر حادثة واحدة، حدثت لأحد قادة المسلمين ويسمى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ وهو أحد سادات مكة، وواحد من الجنود القليلين في جيش المسلمين الذين لهم خبرة بفنون القتال. وعندما بدأت المعركة، التفت عن يمينه وشماله ليرى نوع المساندة التي لديه، فلم يجد لدهشته سوى فتين حديثي السن من الأنصار. دقّ قلبه وقال لنفسه: "إن كلّ قائد

يحتاج عونًا على جانبيه، وأنا أحوج إلى العون في يومي هذا، ولكن ليس لديّ إلا فتّيان عديما الخبرة، فماذا أفعل بهما؟" وما كاد عبد الرحمن ينتهي من حديث النفس هذا، حتى لمس أحدُ الفتيين كوعه، فمال إليه ليسمع ما يُسرّ به الفتى، فقال الفتى: "يا عمّ، أرني أبا جهل". ويروي عبد الرحمن القصة فيقول: "قلت، يا ابن أخي فماذا تصنع به؟". قال: "أُخبرت أنه يسبّ رسول الله، فوالذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا"، فتعجبت لذلك. وغمزني الآخر فقال لي مثلها. فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس. فقلت: "ألا تريان، هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه". وأشار لهما عبد الرحمن بإصبعه إلى رجل مدجج بالسلاح، يقف خلف الصفوف، يحيطه حرس شاهربن سيوفهم من جانبيه. وما إن خفض عبد الرحمن أصبعه التي أشار بها حتى انقض الفتيان على صفوف العدو في سرعة النسر متجهين إلى هدفهما المنشود كالصاعقة، وكان الهجوم مفاجئًا أذهل الجنود والحراسة المحيطة بأبي جهل فهاجموا الفتيين، وفقد أحدهما ذراعه، غير أن ذلك لم يوهن منهما ولم يثنهما عن عزمهما، فهاجما أبا جهل بعنف ساحق، وسقط قائد مكة الكبير على الأرض مصابًا بجراح خطيرة أصابت منه مقتلاً. ومن هذه الروح العالية من التصميم والإصرار التي كانت تملأ قلبي هذين الصبيين، يمكن للمرء أن يدرك مدى التأثير العميق الذي شعر به صحابة الرسول ﷺ، الصغير منهم والكبير، بأخبار الاضطهاد الفظيع، والتعذيب الوحشي الذي تعرّض له رسول الله وأتباعه.

إننا نقرأ عن هذا التعذيب فقط في التاريخ، ومع ذلك نتأثر بعمق، ولكن مسلمي المدينة سمعوا الوقائع من شهود العيان الذين حكوا عن الممارسات الوحشية العديدة، ويمكننا أن نتخيل جيداً كيف أحسّوا بمعاناة إخوانهم. لقد سمعوا عن وحشية المشركين من أهل مكة من ناحية، ومن ناحية أخرى سمعوا عن حلم الرسول ﷺ وصبره عليهم، فلا عجب أن كان تصميمهم بالغا، كي يقتصّوا للجرائم التي ارتكبت في حق الرسول ﷺ والمسلمين الضعفاء في مكة. لقد انتظروا الفرصة السانحة ليخبروا أهل مكة الذين عذبوا المسلمين، أن المسلمين لم ينتقموا منهم ليس بسبب عجزهم عن ذلك، ولكن بسبب أن الله تعالى لم يكن قد أذن لهم بعد.

ويمكن أن نتصوّر مدى شدة تصميم هذه القوّة الصغيرة المسلمة على القتال المستميت من حادثة أخرى. فقبل أن ينشب القتال، أرسل أبو جهل أحد قادة البدو، وكان عُمر بن وهب الجمحي، إلى جهة المسلمين ليأتي له بتقدير لعددهم. فعاد ذلك القائد وأخبره أن عدد المسلمين كان ثلاثمائة أو يزيدون. وملاً السرور أبا جهل وأتباعه، وظنوا أن المسلمين سيكونون فريسة سهلة. ولكن القائد البدوي أكمل حديثه فقال: "ولكن نصيحتي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم. لأن كل واحد منهم قد جاء يتمنى الموت، إني لم أر رجلاً، بل رأيت الموت محمولاً على ظهور الإبل"، أو كما جاء في الأثر عنه أنه قال: "نواضح

يشرب تحمل المنايا" * (الطبري وابن هشام). ولقد صدق حدس القائد البدوي، فالذين هم على استعداد لمجاهة الموت، ليس من السهل أن ينال الموت منهم.

نبوءة عظيمة تحققت

اقترب موعد المعركة، فأطل الرسول ﷺ من عريش كان قد نُصب له ليصلي فيه، وقال معلناً:

﴿سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

كانت هذه هي الكلمات التي سبق أن أوحيت إليه في مكة من قبل، وكانت تخص هذه الموقعة. فحين بلغت وحشية مكة أقصى الحدود، وراح المسلمون يهاجرون إلى الأماكن التي يستطيعون أن يجدوا فيها الأمان، تلقى الرسول ﷺ من ربه الوحي التالي الذي تضمنه هذه الآيات:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤٩﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أُخِذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٥٠﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٥١﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٥٢﴾ سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٥٣﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٥٥﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر: ٤٢-٤٩)

* النواضح جمع ناضح وهو البعير، ويشرب اسم المدينة المنورة قبل الإسلام (المترجم)

هذه الآيات جزء من سورة القمر، وقد نزلت هذه السورة طبقاً لكل الروايات في مكة، وحدد المفسرون المسلمون التاريخ الذي نزلت فيه بين السنة الخامسة والعاشر من بعثة الرسول ﷺ، أي بثلاث سنوات قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، والاحتمال الأقرب هو ثماني سنوات قبل الهجرة. ويتفق الباحثون الأوربيون مع هذا الرأي، إذ يرى "نولدكه" أن السورة كلها نزلت بعد السنة الخامسة للبعثة، ولكن ويرى يرى هذا التاريخ مبكراً قليلاً، إذ يرى أن السورة قد نزلت بين السنة السادسة والسابعة قبل الهجرة أو بعد البعثة. وهكذا يتفق كل المفسرين المسلمين وغير المسلمين على أن السورة نزلت قبل الهجرة بعدة سنوات. إن قيمة الأنبياء الغيبية المذكور في الآيات الكريمة فوق كل شبهة واختلاف؛ فهي تحمل إشارة واضحة إلى ما يجنبه القدر لأهل مكة في معركة بدر، وقد جاء بوضوح نبأ المصير الذي هم منزلقون إليه. وعندما أطل الرسول ﷺ من العريش، كرر ذكر شرح النبأ الغيبي الوارد في السورة، ولا بد أنه قد تلقى من الله تذكيراً بهذه الآيات خلال صلاته في العريش، وبتلاوته إحداهما فقد ذكر صحابته أن الساعة الموعودة في السورة قد حانت.

وفعلاً كانت الساعة قد حانت، كما سبق أن تنبأ بها إشعياء النبيي (٢١: ١٣-١٧). لقد بدأت المعركة، مع أن المسلمين لم يكونوا على درجة الاستعداد المطلوبة، ورغم أن مشركي قريش تلقوا النصح ألا يتورطوا فيها. كان هناك ثلاثمائة وثلاثة عشر من المسلمين، أغلبهم لا خبرة لهم ولم يتعودوا القتال، وجميعهم تقريباً بلا عدّة، يواجهون عدواً

يبلغ ثلاثة أمثالهم عددًا من الجنود، كلهم من المقاتلين المتمرسين. وفي ساعات قلائل لقيَ العديد من زعمائهم البارزين حتفهم، تمامًا كما تنبأ إشعياء النبي، حيث قال: "يفنى كل مجد قيدار"، وفرّ جيش مكة في عجلة بائسة، تاركًا خلفه قتلاه وبعض الأسرى.

ومن الأسرى كان العباس، عم الرسول ﷺ الذي كان يسانده عادة عندما كان في مكة، وقد أرغم على الانخراط في جيش مكة، وقتال النبي. وأسير آخر هو أبو العاص، زوج ابنة الرسول ﷺ. ومن القتلى كان أبو جهل، القائد الأعلى لجيش مكة، وكان بحق رأس أعداء الإسلام.

وجاء النصر، ولكنه أتى معه بكثير من الأحاسيس المختلطة للرسول ﷺ. لقد فرح بتحقيق وعود الله المتكررة خلال أربعة عشر عامًا خلت، وعود جاء ذكرها أيضًا في كتب بعض الأديان السابقة، ولكن أصابه الحزن على المأزق الذي حلّ بأهل مكة، فما أشقاها تلك النهاية التي آل حالهم إليها. ولو كان شخص آخر غيره قد حقق هذا النصر لقفز فرحًا وسرورًا، ولكن منظر العباس أمامه مقيد الأرجل مغلول اليدين أسأل الدمع من عيني الرسول ﷺ ومن عين صديقه المخلص أبي بكر ﷺ. لقد رأى عمر ﷺ ذلك المنظر أيضًا، ولكنه لم يستطع أن يفهم السبب في بكاء النبي وأبي بكر بعد أن تحقق النصر. كان عمر متحيرًا، ولذا تجاسر ليسأل الرسول ﷺ: "لم البكاء يا رسول الله وقد منّ الله عليك بهذا النصر العظيم؟ فإن كان لابد من البكاء بكيت معك، أو تباكيت على الأقل". فأشار الرسول ﷺ إلى بؤس الأسارى من أهل

مكة، ذلك البؤس الشديد الذي يرثى له، فهذا ما يؤدّي إليه عصيان الله تعالى.

لقد تكلم إشعياء النبي مراراً وتكراراً عن عدل هذا الرسول العظيم، الذي خرج ظافراً من معركة قاتلة. وقد ظهر مصداق ذلك بجلاء ووضوح في هذه المناسبة. وفي أثناء العودة إلى المدينة، استراح الرسول ﷺ ليلة في الطريق، ولكن صحابته المخلصين رأوه يتقلب على جانبه ولا يستطيع النوم، إذ كان العباس بالقرب منه يرسف في قيوده. وخننوا أن السبب في أرق الرسول ﷺ هو صوت عمه العباس الذي يئنّ على مسمع منه وقيوده مشدودة باعتباره أسير حرب، فخففوا من وثاق العباس ليكف عن الأنين. وراح الرسول ﷺ في النوم بعد أن كفّ أنين العباس عن إزعاجه. لكنه بعد قليل نهض وسأل متعجباً، لمّ لم يعد صوت العباس مسموعاً؟ ولعل الرسول ﷺ ظن أن عمه قد فقد الوعي، ولكن الحراس من صحابته صرّحوا له أنهم أرخوا قيود العباس قليلاً كي يستطيع الرسول الحصول على قسط من النوم. فرفض ﷺ أن يُظلم أحد من الأسرى بالتفرقة بينه وبين غيره، وذكر لهم أنه إذا كان العباس من أقربائه، فإن الآخرين كذلك أقرباء لآخرين منهم، وعلى ذلك ينبغي عليهم أن يرخوا القيود عن كل الأسرى أو يشدّوها على العباس مثل الباقين. وقد استمع الصحابة لهذه اللفتة، وقرروا أن يرخوا القيود عن كل الأسرى، وتحملوا هم على عاتقهم مسؤولية الحراسة الآمنة لهم.

أما عن الأسرى، فمن كان بينهم من القارئ الكاتب فقد نالوا وعداً باسترداد حريتهم إن هم علّموا عشرة صبية من أبناء المهاجرين القراءة والكتابة، وكانت هذه فديتهم مقابل الحرية. وأما الذين لم يكن لهم من يدفع فديتهم، فقد وهبوا حريتهم عندما سألوها. وأما الذين أمكنهم دفع الفدية، فقد نالوا الحرية بعد دفع ما عليهم. وبتحرير كل الأسرى بهذه الطريقة، وضع الرسول ﷺ نهاية للممارسات الوحشية التي كانت تحوّل أسير الحرب إلى عبد مملوك.

غزوة أُحُد

بعد فرار جيش مكة من المعركة في بدر، عادوا فأعلنوا عن نيتهم في مهاجمة المدينة ثانية لينتقموا لأنفسهم من المسلمين لما عانوه في هذه المعركة. وبعد عام واحد شنّوا هجومهم وهم في عدّة تامّة. لقد أحسوا بالمهانة وبالعار حتى إن رؤساء مكة حرّموا على أقرباء الذين لقوا مصارعهم في بدر أن يبكوا حداداً وحنناً عليهم. وقرروا كذلك أن تساهم أرباح القوافل التجارية في ميزانية الحرب. وهكذا هاجم المدينة جيش من ثلاثة آلاف مقاتل، كاملي العدة والعتاد والاستعداد تحت قيادة أبي سفيان. وعقد الرسول ﷺ اجتماعاً للمشورة، وسأل أتباعه ما إذا كانوا يلقون العدو في المدينة أو خارجها، وكان هو يُفضل البقاء في المدينة، وأن يأتي العدو المهاجم إليهم في وطنهم، فيضع بذلك مسؤولية العدوان على العدو. ولكن تلك الخطة لم تكن مقبولة لدى كثير من المسلمين الذين لم تتح لهم فرصة المساهمة في غزوة بدر،

وكانوا في شوق للقتال في سبيل الله، وأرادوا أن تتاح لهم فرصة قتال مباشر مفتوح، لعلهم ينالون شرف الشهادة في سبيل الله. وقبِلَ الرسول ﷺ رأيَ الأغلبية، وبينما كان هذا الجدل جارياً رأى الرسول رؤيا بشأنه، قال: "إني رأيت بقرًا لي تذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، ورأيت كأنني أمتطي كبشاً". وسأله الصحابة عن تفسير ذلك فقال ﷺ: "أما الدرع الحصينة فالمدينة، وأما انفصام سيفي فأولتها أحداً من أهل بيتي يُقتل أو يموت، وأما البقر المذبح فقتل في أصحابي، وأما الكبش الذي أركب فأولته كبش القوم - أي قائدهم - يقتله الله إن شاء الله" (انظر البخاري وابن هشام والطبقات الكبرى).

وكان واضحاً من هذه الرؤيا وتفسيرها أن البقاء في المدينة أفضل للمسلمين، غير أن الرسول ﷺ لم يصرّ على ذلك، لأن تفسير الرؤيا كان من اجتهاده ولم يكن وحياً تلقّاه، فقَبِلَ رأيَ الأغلبية وقرر الخروج للقاء العدو. وبينما هو يعدّ عدته، راجعت الفئة الأكثر حماسة من أصحابه أنفسهم، وقالوا للرسول ﷺ بعد أن أدركوا خطأهم: "يا رسول الله، إن ما أشرت أنت به علينا لأحسن، يجب علينا البقاء في المدينة ونلقى العدو في طرقاتنا". فرد عليهم قائلاً: "لا ينبغي لسبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم". (انظر البخاري والطبقات الكبرى)

ومضى الرسول ﷺ في قوّة مؤلفة من ألف جندي، وعسكروا على مسافة قليلة من المدينة ليلاً. وكان من عادة الرسول ﷺ أن يدع قوّاته المقاتلة تستريح قبل لقاء العدو، وفي صلاة الفجر رأى الرسول ﷺ بعض اليهود وقد انضموا للمسلمين، وزعموا أن لهم معاهدات مع قبائل المدينة، ولأنه كان على معرفة بكيد اليهود فقد صرفهم ليعودوا. وعند ذلك انسحب عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين مع ثلاثمائة من أتباعه قائلاً إن جيش المسلمين أضعف من أن يقوم لعدوّه، وإن دخول المعركة صار موتاً مؤكداً، وإن الرسول أخطأ عندما أعاد الحلفاء اليهود إلى المدينة. ونتيجة لهذا الانسحاب الذي تم في اللحظة الأخيرة، فقد تبقى تحت قيادة الرسول ﷺ عدد لا يتعدّى السبعمئة مسلم، كان عليهم أن يتصدّوا لجيش يفوق أربعة أمثالهم، وأما الفرق بينهما في العدة والسلاح فيفوق أضعاف الفرق في العدد. كان في جيش مكة سبعمئة مقاتل يرتدون الدروع، ولم يكن لدى المسلمين سوى مائة مدرع، وكان جيش مكة يحوي مائتي فرس، بينما لا يملك المسلمون سوى فرسين.

وبلغ الرسول ﷺ منطقة أُحد، وعلى ممر مرتفع فوق التلال هناك، وضع خمسين من جنده من الرماة لحراسة الممر، وكلفهم بواجب واضح وهو منع أيّ هجوم على جيش المسلمين من هذا المكان، ومنع استيلاء العدو عليه. وأبلغهم الرسول ﷺ بمهمتهم في جلاء، وأنّ عليهم البقاء صامدين في مكاهم وألاً يتزحزحوا عنه حتى يأتئهم الأمر أن يفعلوا، بصرف النظر عما يحدث للمسلمين. ثم ذهب الرسول ﷺ

ليخوض معركته مع ٦٥٠ من الجنود الباقين ضد جيش يفوقهم عددًا بخمسة أمثالهم تقريبًا، ولكنهم بعون الله وفي وقت قصير، شتتوا جيش العدو الذي يتكوّن من ثلاثة آلاف جندي، وراحوا يطاردونهم بعد أن انسحبوا مسرعين.

كان موقع الممر الذي يحرسه الجنود الخمسون خلف ميدان المعركة، فقال الحرس لقائدهم إنّ العدو قد هُزم، وهذا وقت الاشتراك في المعركة لنوال الثواب في الآخرة. فأوقفهم القائد، وذكرهم بأنّ أمر الرسول ﷺ كان واضحًا، ولكن الرجال فسّروا الأمر بمعناه وليس بحرفيته، فلا معنى للاستمرار في الحراسة بعد هروب العدو لينجو بحياته.

النصر يتحول إلى الهزيمة

وبناء على فهمهم هذا ترك الحراس الممر، وغاصوا في خضمّ المعركة. وكان خالد ابن الوليد.. الذي صار فيما بعد قائدًا عظيمًا من القادة المسلمين.. ضمن جيش مكة المنسحب. وبعينه الفاحصة الحادة لاحظ الممر المهجور، ولم يكن هناك الآن سوى قلعة من الرجال يجرسونه. ونادى خالد على عمرو بن العاص، وهو قائد آخر في جيش المشركين، وطلب منه استطلاع الممر الخلفي، ففعل عمرو ورآها فرصة العمر. وأوقف كل من القائدين رجالهما المسارعين بالفرار، وانطلقوا يتسلقون الجبل، وقتلوا المسلمين القلة الباقين في الحراسة، ثم بدأوا في الهجوم على المسلمين من موقعهم البارز المتميّز.

وإذا بجيش مكة المنكسر يجمع شتاته ثانية، بعد سماعه لصرخات الحرب الصادرة من رجاله المهاجمين، وعادوا إلى ميدان المعركة. وكان وقع الهجوم على المسلمين مفاجئاً، إذ كانوا قد تفرّقوا في أنحاء الميدان خلال مطاردتهم لجيش مكة، فلم يتمكن المسلمون من جمع شتاتهم لمقاومة هذا الهجوم الجديد، ولم يكن سوى بعض الأفراد من المسلمين يناجزون العدو، بينما سقط الكثير منهم صرعى وهم يقاتلون، وتقهقر الباقون، بينما صنعت قلة تبلغ عشرين رجلاً من المسلمين سياجاً من أجسادهم حول الرسول ﷺ. وهاجم جيش مكة هذه الحلقة المحيطة بالرسول بشراسة، وتحت ضربات سيوفهم تساقط المسلمون المحيطون بالرسول الواحد بعد الآخر، ومن قمة الجبل أطلق الرماة وابلاً من السهام. وفي ذلك الوقت، لاحظ "طلحة" ﷺ وهو مسلم قرشي من المهاجرين، أن سهام العدو كانت جميعاً مصوّبة نحو وجه الرسول ﷺ، فمد يده وستر بها وجهه الشريف. كانت السهام تصيب يده الواحد تلو الآخر ومع ذلك لم تتزحزح ولم تنخفض، مع أن السهام كانت تحترقها مع كل رمية، وتشوّهت اليد إلى أقصى حد، وهكذا فقد طلحة يده، وظل طوال ما بقي من حياته يسعى بيد مشوّهة مشلولة. وفي زمن الخليفة الراشد الرابع للإسلام عندما نشبت فتنة داخلية بين المسلمين، عيّر طلحة ﷺ أحد خصومه بأنه "مقطوع اليد"، فأجاب عنه صديق له قائلاً: "مقطوع اليد؟ نعم، ولكن هل تعلم أين فقد طلحة يده؟ في موقعة أُحد، حيث رفع يده ليحمي بها وجه رسول الله من سهام العدو".

وبعد زمن من معركة أُحُد، كان أصحاب طلحة ﷺ يسألونه: "ألم يكن وقع السهام يخنز يدك ويجعلك تصرخ من الألم؟ فردّ طلحة: لقد كانت تخزني بالألم وتكاد تجعلني أصرخ، لكنني قاومت الألم والصراخ لأنني كنت أعلم أن يدي لو اهتزت عن مكانها قليلاً لتعرض وجه رسول الله ﷺ لوابل من سهام العدو".

إن الرجال القلائل الذين بقوا مع الرسول ﷺ لم يكن لهم أن يقاوموا الجيش الذي يواجهونه، فتقدّم قسم من العدو ودفعهم بعيداً فكشفهم عنه، وإذ ذاك وقف الرسول ﷺ وحده كسدّ منيع، فتعاورته الأحجار حجراً بعد حجر، الأوّل أحدث به جرحاً عميقاً في جبهته، والثاني جعل حلقتي المغفر تدخلان في خده، وبينما كانت السهام تتساقط غزيرة متسارعة والرسول ﷺ متخن بالجراح إذا به يدعو الله قائلاً: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (مسلم، كتاب الجهاد والسير). ثم انحنى حزيناً ينظر إلى الموتى الذين فقدوا حياتهم وهم يدافعون عنه، وعاد بعض المسلمين ليدفعوا عنه الهجوم المتزايد، فسقطوا صرعى كذلك، وخرّ رسول الله مغمى عليه بين هذه الأجساد الصريعة، وعندما رأى العدو ذلك حسبوه ميتاً، فانسحبوا متيقنين أنهم حققوا النصر المرغوب.

كان عمر بن الخطاب ﷺ من بين المسلمين الذين دفعهم الهجوم العنيف وأبعدهم عن الرسول ﷺ أثناء دفاعهم عنه. وكانت ساحة المعركة قد خلت إلا من الغبار الذي ظل يتطاير في الهواء، وأجساد القتلى التي ظلت ملقاة على الأرض، فاستيقن عمر أن رسول الله قد

مات لما رأى ذلك المنظر. كان عمر ﷺ شجاعاً، وقد أثبت ذلك مراراً، وكان أفضل إثبات لذلك هو قتال إمبراطوريتين في نفس الوقت؛ الروم والفرس، ولم يجفل أبداً أمام الصعوبات ولا اهتز أمام الشدائد. ومع ذلك، فإن عمر هذا جلس على حجر مبتسماً، وقد نكس رأسه، وراح يبكي مثل الطفل الصغير. وفي تلك الأثناء جاء أحد المسلمين، وكان اسمه أنس بن النضر ﷺ، وقد تصور أن المسلمين قد حققوا النصر، فلقد رأهم يتغلبون على العدو، فانسحب من الميدان إذ لم يكن قد ذاق طعاماً منذ ليلة أمس، ثم عاد ومعه بضع تمرات في يده. وحالما رأى عمر باكياً توقّف في عجب وسأله: يا عمر ماذا حدث لك حتى إنك تبكي بدلاً من أن تفرح بالنصر العظيم الذي ظفر به المسلمون؟

رد عمر قائلاً بما معناه: "إنك لا تدري ماذا حدث يا أنس، لقد رأيت الجزء الأول من المعركة، ولا تعلم أن العدو انتهز الفرصة واحتلّ الجبل وهاجمنا بعنف شديد. لقد تفرّق المسلمون بعد أن تصوروا أنهم انتصروا، ولم يجد العدو مقاومة إلا من رسول الله ﷺ وحفنة من حراسه الذين صمدوا ضد جيش كامل، وسقطوا جميعاً صرعى وهم يقاتلون". فقال أنس متسائلاً: "إن كان هذا هو الحق، فما بقاؤنا هنا نبكي؟ فلنذهب إذاً حيث ذهب إمامنا". كانت التمرات الأخيرة في يد أنس وكان على وشك أن يضعها في فمه، ولكنه رمى بها بعيداً قائلاً: "لئن حييت حتى أكل تمراتي هذه لتكونن حياة طويلة، والله إني لأجد ريح الجنة". ثم استل سيفه وألقى بنفسه في صفوف العدو، فكان

بمفرده في مواجهة جيش بأكمله من ثلاثة آلاف. لم يستطع أن يفعل الكثير، ولكن روحًا مؤمنة أعظم وأقوى من جمع غفير. وقاتل أنس ﷺ بشجاعة، وسقط في النهاية جريحًا، ولكنه استمر يقاتل، وعند ذلك انقضت عليه جموع العدو، وظلوا يضربونه بسيوفهم بوحشية بالغة. وبعد أن انفضت المعركة، لم يمكن التعرف على جسد أنس بين القتلى، فقد تمزق جسده إلى سبعين قطعة. وفي النهاية تعرّف عليه أخته من أصبع ممزقة بين الأشلاء، فقالت هذا هو جسد أخي. (انظر البخاري).

ولما انسحب العدو، عاد المسلمون الذي كانوا في حلقة حول الرسول ﷺ ثم انكشفوا عنه تحت ضغط هجوم العدو، ورفعوا جسد الرسول ﷺ من بين القتلى، وقبض أبو عبيده بن الجراح بأسنانه على حلقات المغفر التي انغرست في خدّ رسول الله ﷺ وجذبها فسقطت ثنيتاه، وبعد قليل عاد الرسول ﷺ إلى وعيه. وأرسل حراسه المحيطون به من ينادي المسلمين ليجمعوا ثانية إلى نبيهم. وبدأت تجتمع حوله قوة من المسلمين، رافقته إلى أسفل الجبل.

ورأى أبو سفيان.. قائد العدو.. هذه البقية من المسلمين فصاح بصوت عال: "لقد قتلنا محمدًا". وسمع الرسول ﷺ الصيحة المتبجّحة، ولكنه منع المسلمين أن يجيبوه خشية أن يعرف العدو الحقيقة فيعاود الهجوم، ثم يضطر المسلمون الجرحى والآخرون الذين نال منهم التعب والإعياء أن يقاتلوا ضد كل هذا الحشد البربري.

ولما لم يتلقَّ أبو سيفان جواباً من المسلمين، أيقن أن الرسول ﷺ قد مات، فأردف صيحته الأولى بثانية وقال: "لقد قتلنا أبا بكر أيضاً". ومنع الرسول ﷺ أبا بكر أن يرد عليه. فأردف أبو سيفان بصيحة ثالثة وقال: "وقد قتلنا كذلك عمر". ومنع الرسول ﷺ عمر أيضاً أن يرد. فصاح أبو سيفان نشواناً طرباً بأن الجميع قد قتل، وعندئذ لم يتمالك عمر نفسه فصاح قائلاً: "خسئت يا عدو الله. إننا جميعاً أحياء بفضل الله، وعلى استعداد لقتالكم وتحطيم رؤوسكم". فرفع أبو سيفان عقيرته بالهتاف القومي للمشركين: "أعل هُبَل" (وكان هبل صنم مكة القومي). عندها لم يتحمل رسول الله هذا التباهي ضد الله الذي لا إله إلا هو، والذي لأجله يضحّي هو وجميع المسلمين بكل عزيز لديهم. لقد رفض الردّ على أبي سيفان عندما أعلن عن موته، كما رفض الردّ عندما أعلن عن موت أبي بكر وعمر لأسباب تكتيكية، ولم يكن قد بقي له إلا فضلة من قوّة قليلة، وكانت قوات العدو ضخمة، وقد أطربها الفرح، ولكن العدو الآن قد سبّ الله تعالى. ولم يتحمّل الرسول إهانة كهذه، فاشتعلت روحه ونظر بغضب إلى المسلمين المحيطين به وقال: "ألا تجيبوا له؟". قالوا يا رسول الله ما نقول؟ قال: "قولوا لله أعلى وأجل". ورفع المسلمون هذه الهتافات، فإذا بهتافتهم وأصواتهم تُذهل العدو، وتصيبه بالإحباط بعد أن أدرك أن رسول الله لا يزال على قيد الحياة بعد كل هذا. وأمامهم وقف حفنة من المسلمين، منهم الجرحى ومنهم من أمهك الإعياء، ومع ذلك لم

يتجاسر العدو على مهاجمتهم مرة أخرى، واكتفوا بما حققوه وعادوا يهللون لنصرهم بفرح وطرب.

لقد تحول انتصار المسلمين في موقعة أُحد إلى هزيمة، ورغم ذلك، فقد أثبتت المعركة صدق الرسول ﷺ حيث تحققت فيها النبوءات التي أنبأ بها قبل الخروج إلى الميدان. فقد انتصر المسلمون في البداية، وقُتل حمزة رضي الله عنه.. عم رسول الله الحبيب إليه وهو يقاتل وقُتل حامل لواء العدو مبكراً في بداية المعركة، وجرح الرسول ﷺ نفسه، كما قُتل الكثير من المسلمين، وكل هذا حدث تماماً كما أنبأ به الرسول ﷺ في رؤياه.

وبالإضافة إلى تحقق الأحداث التي سبق الإنباء عنها، فقد قدمت هذه المعركة دلائل عديدة على إخلاص المسلمين وتفانيهم في حب الله ورسوله. لقد بلغ سلوكهم من المثالية بمكان لم يستطع التاريخ أن يجد ما يوازيه، ولقد سبق أن قصصنا بعض الأحداث التي تثبت هذا بجلاء، غير أن هناك واقعة أخرى تستحق الذكر، وهي تُظهر مدى قوة الاقتناع واليقين وعمق الولاء الذي أبداه صحابة رسول الله ﷺ. فعندما تراجع الرسول ﷺ إلى سفح جبل أُحد، مع حفنة من المسلمين، أرسل بعض أصحابه لتفقد الجرحى في الميدان. ووجد أحد الصحابة بعد طول البحث جريحاً مسلماً من أهل المدينة، وكان على مشارف الموت، فانحنى الصحابي عليه وقال: "السلام عليكم". ورفع الجريح المسلم يده المرتجفة وأخذ بيد الزائر وقال: "كنت أنتظر أن يأتي إليّ أحد"، فرد الزائر على الجندي قائلاً ما معناه: "إنك في حال حرجة

فهل تريد أن أبلغ ذويك وأهلك شيئاً؟" فرد المسلم المحتضر: "نعم نعم، أقرئ أهلي السلام وأبلغهم أنني بينما أموت هنا فإني تركت لهم أمانة ثمينة ينبغي عليهم أن يحافظوا عليها بأرواحهم، وهذه الأمانة هي رسول الله ﷺ. وإن وصيتي إليهم أن لا يخلص العدو إلى رسول الله وفيهم عين تطرف" (الموطأ والزرقي).

كان لدى المحتضرين الكثير مما يودّون قوله لأقربائهم، ولكن هؤلاء المسلمين الأوّلين السابقين لم يكونوا، حتى في لحظات الموت، يُفكرون في أقربائهم ولا أبنائهم ولا بناتهم ولا أزواجهم، ولم يفكروا في ممتلكاتهم، بل كل ما فكروا فيه هو الرسول ﷺ. لقد واجهوا الموت مستيقنين أن رسول الله قد جاء لينقذ العالم، وأن أبنائهم لو عاشوا بعدهم فلن يحققوا سوى القليل، ولكنهم لو ماتوا دفاعاً عن رسول الله فسيكونون قد أدّوا حق الله تعالى وحق الإنسانية كلها. لقد آمنوا أنهم عندما يُقدّمون على التضحية بأنفسهم وبأسرهم فداء لرسول الله، فإنهم يكونون قد أدّوا خدمة جليلة للإنسانية وأرضوا ربهم، وأن موتهم في هذا السبيل هو ضمان الحياة الأبدية للمجتمع الإنساني بأكمله.

وجمع الرسول ﷺ إليه الجرحى والقتلى، وتلقّى الجرحى إسعافهم الأوّلية، وتم دفن القتلى. وعلم الرسول ﷺ أن العدو قد تعامل مع المسلمين بأقصى صور البدائية الوحشية؛ فقد مزّقوا أجساد قتلى المسلمين، وقطعوا أذنًا هنا وأنفًا هناك. ومن الأجساد التي مثلوا بها كان جسد حمزة عم الرسول ﷺ، فوقف محزوناً بجواره وقال: إن فعل الكفار قد قدم لنا تبريراً لما كنا نعتبره غير مبرر من قبل. حالما قال النبي

ﷺ ذلك أمره الله أن يدع الكافرين وشأنهم، وأن يظل سائراً على سبيل الرحمة التي اختطها طوال حياته.

إشاعة عن وفاة رسول الله تصل إلى المدينة

وصلت إلى المدينة إشاعة عن مقتل الرسول ﷺ وتشّتت جيش المسلمين، وذلك قبل أن تصل بقايا القوّة المسلمة إلى البلدة، وأسرع الأطفال والنساء إلى جبل أحد في جنون، ومن ثم عرفوا الحقيقة وعادوا مع بقايا الجيش. ولكن امرأة من بني دینار استمرت في المشي حتى بلغت أحداً، لقد فقدت هذه المرأة زوجها وأباها وأخاها في المعركة، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنهما فقدت أيضاً ولدها. ولقيها أحد الجنود العائدين وأخبرها أن والدها قد قتل، فقالت: "أنا لا أسألك عن هذا، ولكن أخبرني عن رسول الله". كان الجندي يعلم أنه لازل حيّاً، ومن ثم لم يجب على سؤالها لتوّه ومضى يخبرها عن أخيها وزوجها اللذين ماتا أيضاً. وفي كل مرة تستمر هي في سؤالها عن الرسول ﷺ لا تتزحزح عن ذلك: "ماذا فعل رسول الله؟" لقد كان ذلك تعبيراً غريب الاستعمال، ولكننا إذا تذكرنا أن امرأة هي التي كانت تتفوّه به زالت الغرابة، فعواطف المرأة قوية، وهي أحياناً تتحدث إلى الشخص الميت كما لو كان حيّاً، ولو كان الميت قريباً لها فإنها تميل إلى أن تشتكي إليه وتتساءل لماذا تركها وذهب دون أن يهتم بها أو يعتني بها. وهي عادة شائعة عند النساء أن يُنحَن بهذه الطريقة على أعزائهن المفقودين، وعليه فإن تعبيراً كهذا يناسب امرأة محزونة

على موت الرسول ﷺ. لقد كانت هذه المرأة تعتبر أن الرسول ﷺ أحب إليها من أي شخص آخر، ورفضت أن تصدق خبر موته بعد أن سمعت به، وفي نفس الوقت لم تنكر الأنباء، وظلت تقول في حزن نسائي حقيقي: "ماذا فعل رسول الله؟" وبقولها هذا كانت تتمثل الرسول ﷺ حياً وتشتكي: كيف لقائد مخلص محب مثله أن يجرّعهم آلام الفراق عنه.

وعندما وجد الرجل العائد من الميدان أن هذه المرأة لم تهتم كثيراً بموت أبيها وأخيها وزوجها، أدرك مدى عمق حبها للرسول ﷺ، فقال لها: "أما رسول الله فهو كما تحبين، حيّ يُرزق". فطلبت المرأة من الجندي أن يريها إياه، فأشار إلى ركن في ساحة المعركة، فهرعت إليه وبلغت مكان الرسول ﷺ وأمسكت بطرف عباة بيديها وقبلتها وقالت: "فداك أبي وأمي يا رسول الله. ما دمت سالماً فلا أبالي بمن يموت بعد ذلك". (انظر ابن هشام)

يمكننا إذن أن نرى مدى العزم والثبات والحب والإخلاص الذي أبداه المسلمون رجالاً ونساءً في هذه المعركة. إن الكُتّاب المسيحيين يقصّون باعتزاز قصة مريم المجدلية ورفقائها، ويحكون لنا عن إخلاصهم وشجاعتهم. وقيل إنهم تسللوا في الساعات الأولى للصباح من خلال اليهود وذهبوا إلى قبر السيد المسيح، ولكن ماذا يكون هذا الفعل بالمقارنة مع إخلاص هذه المرأة المسلمة من بني دینار؟؟

مثال آخر سجله التاريخ. فبعد دفن القتلى وأثناء عودة الرسول ﷺ إلى المدينة، رأى النساء والأطفال الذين خرجوا إلى ظاهر المدينة للقائه،

وكان جبل بغلته في يد سعد بن معاذ ﷺ سيد المدينة. كان سعد يقود البغلة بفخر واعتزاز، وكأنه يعلن للعالم كله أنه رغم كل ما حدث، فقد استطاع المسلمون أن يعودوا برسول الله سليماً معافى إلى المدينة. وحدث أن رأى أمه العجوز تتقدم لتلقى الجموع العائدة. كانت هذه العجوز ضعيفة النظر جداً، وعرفها سعد والتفت إلى الرسول قائلاً: "يا رسول الله، هذه أمي"، فقال الرسول ﷺ: "دعها تتقدم". وجاءت المرأة تتقدم إلى الأمام، وبيصر كليل حاولت أن تعثر على وجه الرسول ﷺ، وأخيراً، لما استطاعت أن تتبينه ظهرت عليها أمارات السعادة.

بلغ الرسول ﷺ المدينة، ومع أن الكثير من المسلمين قد قُتل وجُرح في هذه المعركة، غير أنه من الصعب القول إنها انتهت بهزيمة المسلمين. والحوادث التي روينها من قبل تدل على العكس، فهي تثبت أن معركة أُحد كانت انتصاراً للمسلمين. والمسلمون الذين يقبلون صفحات تاريخهم المبكر يمكنهم أن يستمدوا قوة وإلهاماً من غزوة أُحد.

وفي المدينة، عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى ممارسة مهمته النبوية، فأنهمك ثانية في تعليم وتدريب أتباعه. ولكن، كما كان الحال فيما مضى، لم يستمر عمله هذا يمضي طويلاً بلا إعاقة. فبعد غزوة أُحد صار اليهود أكثر جسارة، وبدأ المنافقون يطلون برءوسهم ثانية. لقد ظنوا أن اقتلاع الإسلام قد صار في متناول أيديهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا المزيد من الجهد لتحقيق غايتهم. وبناء عليه، شرع اليهود في

استخدام سبل جديدة لإثارة المشاكل والمضايقات، فبدأوا ينشرون السباب في أبيات من الشعر، يهدفون بذلك إهانة الرسول وآل بيته. وحدث مرة أن دُعي الرسول ﷺ للفصل في خصومة، واضطر للذهاب إلى قلعة يهودية، فدبر اليهود أمر إسقاط قلب من الحجر عليه ليضعوا نهاية لحياته. وتلقى الرسول إنذاراً مسبقاً من الله تعالى، ولقد تعود أن يتلقى مثل هذه الإنذارات في وقتها المناسب، فترك مجلسه دون أن يلفظ بكلمة، وقد اعترف اليهود بعد ذلك بتدبيرهم الأحمق. وكان اليهود يقومون بالإساءة إلى النساء المسلمات في الطرقات، وفي إحدى تلك الحوادث فقد أحد المسلمين حياته. وفي حادثة أخرى رضخ اليهود رأس فتاة مسلمة بين حجرين وقتلوا بطريقة أليمة. وقد أدى سلوك اليهود هذا إلى توتر علاقاتهم مع المسلمين، الأمر الذي أعطاهم الحق في قتال اليهود. ولكن المسلمين اكتفوا بإجلائهم عن المدينة، فهاجرت إحدى القبيلتين اليهوديتين إلى الشام، وأما الأخرى فهاجرت بعض أفرادها إلى الشام، واستقر البعض الآخر في خيبر؛ القلعة اليهودية الحصينة إلى الشمال من المدينة المنورة.

في فترة السلام، بين غزوة أحد والموقعة التالية، شهد العالم مثلاً بارزاً لا نزاع في أنه يدل على مدى تأثير الإسلام في أتباعه، ونحن نشير بذلك إلى تحريم الخمر. وعند وصف الظروف التي كانت تسود المجتمع العربي قبل الإسلام، كنا قد ذكرنا أن العرب كانوا سكيرين مدمنين، وكان شرب الخمر خمس مرات يومياً تقليداً عادياً في كل بيت عربي، وأما فقد المرء لوعيه تحت تأثير الخمر فقد كان ممارسة

عامّة، ولم يكن العرب يشعرون بأيّ خجل من هذا، بل كانوا يعتبرونه فضيلة. وعندما يصل ضيف، كان من واجب الزوجة أن ترسل أدواراً متتابعة من الشراب. وكى يُفطم شعبُ كالعرب عن هذه العادة المميّنة، لم يكن ذلك بالأمر الهين.

وفي السنة الرابعة للهجرة، تلقّى الرسول ﷺ أمراً بتحريم الخمر، ومع إعلان هذا الأمر اختفت الخمر من المجتمع المسلم. وسجّل التاريخ أنه حين تلقّى الرسول ﷺ الوحي بتحريم الخمر، أرسل لأحد صحابته وأمره أن يعلن أمر الله الجديد في طرقات المدينة. وفي تلك الأثناء كان جماعة يشربون الخمر في بيت أحد الأنصار، كان هناك أشخاص كثيرون مدعوون، وأكواب كثيرة قد أعدت للشرب، وجرة كبيرة مليئة بالخمر قد فرغت، وأخرى قد فتحت للشراب. كان البعض قد فقد وعيه، والبعض الآخر في طريقهم لذلك. وفي هذه الحال سمعوا شخصاً يعلن أن الخمر قد حرّمت بأمر رسول الله بعد أن نزل إليه وحي الله بذلك. نهض أحد أفراد الجماعة وقال: "يبدو أن هناك إعلاناً ضد شرب الخمر، فلننظر إن كان الأمر كذلك". فنهض آخر وضرب بعكازه الجرة الفخارية المليئة بالخمر فتحطمت قطعاً وقال: "لنطع الأمر أولاً ثم نستفسر لاحقاً، ويكفيينا أن نسمع إعلاناً كهذا، فلا يليق أن نظل نشرب بينما نستفسر عن الأمر، بل ينبغي علينا أن ندع هذه الخمر تسيل في الطرقات أولاً ثم نبحت الأمر بالتفصيل فيما بعد" (انظر البخاري ومسلم كتاب الأشربة). كان هذا المسلم على حق، فلو كانت الخمر قد حرّمت، لصاروا مذنبين لو استمروا يشربون، ولو لم تكن

الخمر قد حُرمت، فلن يكونوا قد خسروا كثيراً عندما قاموا بترك قدورهم يسيل منها الخمر في الشوارع. ولقد اختفى شرب الخمر من المجتمع الإسلامي بعد هذا الإعلان. لم تكن هناك حاجة إلى حملة قومية أو جهود خاصة لإحداث هذا التغيير الثوري.

إن المسلمين الذين سمعوا هذا الأمر وشهدوا الاستجابة الفورية التي استُقبل بها، عاشوا بعد ذلك سبعين أو ثمانين سنة، ولم يوجد من بين هؤلاء فردٌ واحد صدر عنه ما يدل على أنه قد شعر بأدنى إحساس بالسخط إزاءه. ولو وُجدت حالة كهذه، فلا بد أنها كانت لواحد من الذين لم ينالوا فرصة وجوده تحت التأثير المباشر للرسول ﷺ. ولنقارن هذا مع حركة الامتناع عن شرب الخمر الأمريكية، أو الجهود التي بُذلت لترويج فكرة الاعتدال في الشرب ولسنوات طويلة في أوروبا. في الحالة الأولى كان إعلان بسيط قام به الرسول ﷺ كافياً لمحو إثم اجتماعي متفشٍ ومتأصل في أعماق المجتمع العربي.

وفي الحالة الثانية كان المنع مشرعاً بقوانين خاصة، تساندها الشرطة، والجيش، وضباط الجمارك، ومفتشو الضرائب؛ وكلهم كانوا يبذلون جهودهم المشتركة كفريق موحد، محاولين القضاء على رذيلة شرب الخمر، ولكنهم فشلوا واضطروا للاعتراف بفشلهم. وفاز السكريون، ولم يمكن هزيمة رذيلة شرب الخمر. ويُقال عن عصرنا إنه عصر التقدم الاجتماعي، ولكن حين نقارن عصرنا بعصر الإسلام المبكر فإننا نعجب متسائلين: أيّ العصرين يستحق هذه التسمية،

عصرنا هذا أو العصر الذي أحدث الإسلام فيه هذه الثورة الاجتماعية العظيمة.

إن ما حدث في أُحُد لم يكن لِينسى بسهولة، فأهل مكة رأوا في تلك المعركة نصرهم الأول، ولقد أذاعوا الأخبار في كل أنحاء الجزيرة العربية، واستخدموها لإثارة قبائل العرب ضد الإسلام، ولكي يقنعوهم أن المسلمين ليسوا مستعصين على الهزيمة. وإذا كانوا قد حققوا نجاحًا وازدهارًا، فلم يكن ذلك بسبب قوّة سرّية كامنة فيهم، بل كان بسبب ضعف المتمسّكين بالمعتقدات العربية وضعف الوثنيين العرب، ولو قام العرب الوثنيون بعمل مشترك، فلن يكون من الصعب القضاء على المسلمين. وبدأت حملات الكراهية ضد المسلمين تشدّد نتيجة لهذه الدعاية، وأخذت القبائل العربية الأخرى تنافس أهل مكة في إزعاج المسلمين، وراح بعضهم يهاجمهم جهارًا، بينما أوقع البعض بالمسلمين الكثير من الخسائر في الأرواح.

ففي السنة الرابعة للهجرة، أرسلت قبائل عضل والقارة ممثلين عنهم إلى الرسول الكريم ﷺ، ورفعوا إليه التماسًا يطلبون أن يرسل إليهم بعض المسلمين المتضلعين في تعليم الإسلام والقرآن، ليعيشوا بينهم، ويعلموهم الدين الجديد، حيث إن الكثير من رجالهم قد مالوا إلى الإسلام.

كانت هذه في الحقيقة مكيدة مدبّرة رسم خطوطها بنو لحيان، رأس أعداء الإسلام. فقد أرسلوا هذا الوفد إلى الرسول ﷺ، ووعدوا أفراد الوفد بمكافأة ثمينة.

تلقى الرسول الطلب دون أن يرتاب فيه، وأرسل لهذه القبائل عشرة من المسلمين ليعلموهم مبادئ الإسلام وعقائده. وعندما بلغ الجمع أرض بني لحيان، جاءت الأخبار إلى رجال القبيلة تأمرهم بالقبض على النفر المسلم أو قتلهم، وبناء على هذا الإيعاز الآثم، خرج مائتا رجل مسلح من بني لحيان لمطاردة النفر المسلم حتى أدركوهم في النهاية عند مكان يقال له "الرجيع". وحدثت مناظرة بين عشرة مسلمين ومائتين من العدو، كان المسلمون مملوئين بالإيمان واليقين، ولم يكن لدى العدو من ذلك شيء. وتسلق المسلمون العشرة قمة من القمم وتحذوا المائتين، وحاول العدو أن يتغلب على المسلمين بمكيده آثمة، فعرضوا عليهم أن يُيقوا على حياتهم إذا هبطوا إليهم، ولكن قائد المجموعة ردّ بأنهم رأوا ما يكفي من وعود الكافرين. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى بالدعاء، وهو سبحانه العليم بهم، فقد أخبر نبيّه بما هم فيه. وعندما رأى الكافرون ذلك النفر الصغير بهذه الصلابة الشديدة، بدأوا في مهاجمتهم. فقاتل النفر دون أن تطرق خواطرهم الهزيمة، فسقط سبعة منهم وهم يقاتلون. وأعاد الكافرون وعودهم على مسمع الثلاثة الباقين بالإبقاء على حياتهم لو هبطوا إليهم من القمة، فصدّقهم الثلاثة واستسلموا. وبمجرد أن فعلوا ذلك أوْتَقَوْهم بسيور القسي، فقال أحد الثلاثة: "هذا أول الغدر والله يعلم ما أنتم صانعون بعد"، وأبى أن يصحبهم، فجرّوه واعتدوا عليه ليصحبهم فأبى، فلما هالهم ما أبداه من مقاومة قتلوه في ذلك المكان. وانطلقوا بالاثنتين الآخرين وباعوهما كعبيد إلى قريش في مكة. كان أحدهم